

بين ساحتي التحرير والحرية - ثلاثية العودة لوحة يرسمها التشكيليون العراقيون - د. سعدي عباس بابلي

لقد حلم المهجّرون يوماً أنهم سيركبون خيول العودة لأرضهم، أصلهم، تاريخهم، هواؤهم وحرّيتهم المسروقة، ولهذا الحلم أشكّاله في ذاكرتهم كل واحد منهم وضعه في تركيب صوري يطابق متعته القادمة وأول هؤلاء الحالمين صانعو الثقافة، فنانون، أدباء، واعلاميون ويتقدم التشكيليون العراقيون لبدءوا رسم لوحة تمتد بين ساحة التحرير وساحة الحرية (الفردوس سابقاً) ولكي نحدد الفاصلة المكانية بين التحرير والحرية فهي لا تتعدى سوي شارع يمتد خلف شارع السعدون يربطهما معاً بمسافة قصيرة جداً ونستطيع أن نحدد أيضاً الفاصلة الزمنية بينهما فمن نصب جواد إلي موقع سقوط نصب الخوف وتحويل الفردوس إلي الحرية يشكل زمن السقوط التصاعدي لفرسان الموت بكل أنواعه الاجتماعي، السياسي الثقافي، العلمي، البيئي.. وهكذا.. علي الرغم من أن بين (الفردوس والحرية) حالة ربط لا مثيل لها في القيم الانسانية ومن الأقيام الرابطة بين مفهوم (التحرير والحرية) كمفهوم تعبيرى محفز لابداع وانفصال الفن وكذلك بين الروابط الماسكة بين تشكيلي الداخل الذين وضعوا تحت ضغوط كوابيس الخوف وغياب الشمس والذين شاهدوا يوماً صوراً معكوسة حتي لانسانية الكهوف وبين تشكيلي الخارج الذين لا يقل حظهم عن زملائهم في الداخل حيث وضعوا أيضاً تحت ومضات أحلام صنعتها غربتهم المؤذية ويشاهدون يوماً صوراً مقلوبة لمفاهيم كانوا قد أسسوا لها قبل رحيلهم غير الارادي إلي منافهم، والثلاثية التشكيلية هذه قادمة من الخيال وسيأتي بها الواقع القادم يوماً لأن بين الواقع والخيال منطقة صغيرة جداً تجمّع فيها كل هؤلاء التشكيليين دون استثناء وقرروا أن يعيدوا صورة التشكيل الرائد لفن الشرق ويستجيبوا لدموع من بكى حريق الفن ولو حرق المغول الجدد الفن العراقي ثلاث مرات فانه سيظهر من جديد، لأن تلاميذ فائق وجواد والراوي والشيخلي قرروا رسم ثلاثية العودة. ولذلك أطلقوا عليها هذا الاسم، لأن العودة لا تعني فقط عودة تشكيلي الخارج إلي منابع فنهم وابداعهم وانما أيضاً العودة لتشكيلي الداخل إلي حرّيتهم وإلي فنهم الابداعي الذي غيبته مفاهيم الخطأ والسذاجة وأبعدته عن صورته الكبرى كواحد من أهم تيارات الفنون المرئية في العالم، وفنانو البيّنالات والمهرجانات العالمية من العراقيين ما زالوا هم أنفسهم لم يتغيروا منهم من سكن المنافي يرسم هادناً خوفاً من غربته ومثاهاتهم ومنهم من اقتحم المدن الكبرى ووضع اشاراته في باريس وروما ولندن ونيويورك ومنهم من اعتكف منزله الخالي في أحياء بغداد والموصل وأربيل والبصرة يرسم ابداعاً انسانياً أقوى من ابداعات المقابر الجماعية والقبوات السرية وألوان الفرن الحمراء، والجسر يمتد قوياً بين تشكيلي الداخل وتشكيلي الخارج لأن الصفة الرابطة لهذا الجسر واحدة ولها شكل ومعنى واحد فقط انهم عراقيون وعراقيون فقط لم يشاركهم أحد من (الأشقاء) العرب أو (الأصدقاء) الامبرياليون، وعراقيتهم وحدها هي التي منحتهم صوتهم المصور في لوحات تشكلت من ابداعاتهم، لوحات عن طائر (المهلل) الجنوبي الذي تغني به أهل الجنوب رمزاً للفرح الملون بكل حلاوة ونقاوة أزياء أهل الشمال في (نوروز) ولكي نبدأ في قراءة

أجزاء هذه الثلاثية جيداً علينا أولاً أن نتأكد من أن رؤيتنا للشمس واضحة ولا أحد هذه المرة يستطيع أن يعيد غيوم الخوف السوداء ليسرق الضوء الذي أتى أخيراً من الله.

الجزء الأول... حلم الحلم

لقد احتل نصب الفنان الراحل جواد سليم (الحرية) موقعاً غير اعتيادي في ذاكرة التشكيليين العراقيين منذ افتتاحه واحتلاله الساحة الرمزية (ساحة التحرير) وحتى هذا الوقت الصعب من حياتنا العراقية، لا لكونه سجل تاريخ مرحلة كانت الحرية حلماً يلقاه العراقيون كل يوم في منامهم في ليالي الخوف الخمسيني والستيني وكانوا عندما يمشون أمامه كل يوم منذ نصبه في قلب عاصمتهم الجميلة وحتى اهتزازها بقنابل الصدمة التي لم ترهبها والتي أفاقتمهم فقط من منامهم لكي يشاهدوا ولو للحظة قصيرة فقط وهماء كان أم واقعاً وجود (الحرية) وهل هذا النصب فعلاً رمزاً لها؟ وهل المبدع الحالم جواد سليم قد أحس فعلاً هذا الحلم وأعاد تشكيل واقعيته يمنحها إلي مشاهديه من الحالمين أيضاً، ولكن (الحرية الحلم) المنحوتة علي قطع الرخام أبقاها قاتلو الأحلام حلماً ليس له لون أرادوه أن يشاهد فقط ولكن لا يحس، لأن الاحساس في الحلم غير مشاهدته، مشاهدة الأحلام دائماً كاذبة، ولكن الاحساس بها هو المتعة الفعلية والتي تقترب من واقعيته ولذلك لم يتعرف فعلاً العراقيون علي متعة حلم جواد سليم وبقي فقط رمزاً لحلم غائب، ولم يكن جواد وحده هو الذي احتل ساحة التحرير فنياً وإنما رائد التشكيل العراقي الراحل فائق حسن أيضاً كان له نصيب في هذه الساحة حيث لم يرضي لنفسه أن يكون لجواد فقط حق تشكيل وتصوير الحلم العراقي وإنما أراد مشاركته ليحتل الجزء الآخر من طرف الساحة في لوحة جدارية من الموزائيك شكّل فيها رمزية (الحرية) وهذا العمل أعطاه صفة الحالم المبدع أيضاً، وجاء المغول الجدد الذين خرجوا فجأة ومن دون مقدمات من لوحة فنان عراقي سبعينية (المغول في بغداد) ليحيطوا رموز جواد وفائق بكل أنواع الازالة من مزابل وباعة يتجولون وسكراب شارع الشيخ عمر وسببوا الموت للمتحف الوطني للفن الحديث وتحولت رمزية الحرية (الحلم) الي حلم أيضاً فكيف إذن يستطيع العراقيون مشاهدة حلم الحلم أو الاحساس به فبدلاً من أن يصبح الحلم حقيقة أرادها فائق وجواد وغيرهم تحول إلي حلم أيضاً، ومن هذه الرؤية تشكلت أجزاء التشكيل للجزء الأول، خيول جواد تخرج بقوة تحمل فرسانها الجدد الذين يحاولون أن يعيدوا للحلم واقعيته وطيور فائق وشمسة ونساؤه الفارعات بكل أنواع الزهو والكبرياء العائد يغلف هذه الوجوه المثقلة بالانسانية والحضارة لتعيد صورة أخري لعشتار بابل والثيران الحارسة لنينوي وألواح السومريين، هذه المرة أراد هؤلاء التشكيليون ليس الراحلان جواد وفائق فقط وإنما جميع المبدعين المغيبين في الداخل والمهجريين في الخارج الذين حلموا الحلم، أن يكون الاحساس به أولاً قبل مشاهدته لانهم لن يجعلوا للكذب صوراً للمشاهدة مرة أخري وإنما صورة للفرح العراقي الذي جاء حذراً برغم أنهم أرادوا أن يعطوه صفة الخوف أيضاً ولكنه جاء برغم أعاصير الموت الذي لم تألفها حتي الشعوب التي قادت مفهوم التحرر، جاء قوياً من أرض الشمال الي أرض الجنوب ضوءاً يغلف كل أجواء الفضاء العراقي الذي تداخل من أجزاء المقطع الأول من الثلاثية إلي الثاني الذي حمل عنوان نوروز وطائر المهلهل. الضوء يغلف الأجزاء العليا ثم يمتد علي بسط خضراء من أرض تحتضن أهلها الراقصين علي أغاني نوروز الجديد حيث يرسم (محمد عارف واسماعيل خياط وصدر الدين حمه) هذا الفرع العراقي الجديد كما حلم به من قبل الراحل آزاد شوقي الكل

يرسمون والكل قرروا أن يعيدوا الشمس لأطفال الورد في حلبجة وسره سنك وكلي علي بك، لقد عاد نوروز من موقعه الشمالي حاملاً لوناً لا يشبه ألوان التشكيليون لوناً جديداً قد يكون (نرجسياً) لا يمنح نفسه بسهولة لمن يريده وإنما فقط للحالمين به والحالمون به (العراقيون) لا غيرهم، ومن موقع غير بعيد عن لون نوروز يمتد جناح يومض كالبرق ريشه يعكس ضوء الشمس الجنوبية في ليالي الصيف وهو ينوي أن يحط علي ضفاف العشار والفرات والأهوار العائدة (يهلhel) مفرداً وكألك عندما تشاهده وهو يمد جناحه حاضناً كل وجوه التعب معيداً فرحاً مغيباً طال انتظاره وهذا الطائر الجميل كما رسمه الفنان (خالد المبارك) في أحلي معارضه كان رمزاً للفرح لدي أهل الجنوب لأنه عندما يفرد في حقولهم كان يبشر بالفرح القادم ولذلك أسموه بـ(المهلhel)، وكما رسم ويرسم (سعد الطائي وشوكت الربيعي وماهود أحمد) مشاحيف الهور وقصب البردي وقصص الجمال الجنوبية يحفر (علي طالب ومحمد مهر الدين) طلاس جمال يتطلب الاحساس به قدرة غير اعتيادية في الوقت الذي ينتصب انسان (عامر العبيدي) بعد طول انتظار علي كرسية الزمني ومكعب (سالم الدباغ) الذي يمكنك الآن مشاهدة روجه الأربعة في آن واحد وقباب (سلمان عباس) كان فرحها أكثر ابتهاجاً انعكاسات قوية لضوء النهار الجديدة و(وليد شيث) يمنح ألوانه للقادمين من عشاق الحياة و(كريم عباس وشداد عبد القهار) يرسمون جمالاً قادماً من آفاق الاحلام وقصصاً للعشق يأتي بها (ستار كادوش) و(احسان الخطيب) من خلف البحار البعيدة والكل يرسم ويرمز مع نوروز والمهلhel.. والرمز المصور هو صفة تشكيلية منظمة وفق قاعدة تنظيم الشكل وتشكيلات الرمز أصبحت في هذا المقطع من الثلاثية أشبه بالتشكيل المرمز علي بوابة عشتار البابلية ونصب الحرية وكلاهما يشكلان (رموزاً) ورموز التاريخ ليس معناها العودة إليها شكلاً وإنما العودة إليها مفهوماً لأن الشكل ايحاءً مرنياً والمفهوم ايحاءً ذهنياً ولكي نكون عراقيون فقط كما كان أجدادنا حيث نثروا أعظم حضارات الانسان من دون عون من الغرباء علينا أن نعيد تشكيل الرمز (الصورة) وهذه المرة فرحاً لا يشبه أي فرح آخر ونمنحه للقادمين من أطفالنا الذين شكلوا كل أجزاء المقطع الأخير من هذه الثلاثية والذي حمل عنوان:

الشمس في بغداد أجمل

كل الذين رسموا (الشمس) كانوا حالمين أيضاً، لأن الرمز هذه المرة لم يتشكل من شكل (الشمس) وإنما جاء من احلامهم المرسومة في رؤياهم قبل أن يروها وتحويل الرمز إلي صورة والصورة إلي رؤية هي معادلة اظهار الفن لدي الفنانين، والتشكيليون العراقيون رسموا شكلاً آخر للشمس لم يعطوها رمز (الحرية) كما هو مألوف لها أن تظهر في تصورات الفن المرني ربما لأنها تحمل معنى درامياً لمفاهيم الضوء والنهار ومعاكسة الظلام والليل هذه المرة أعطوها رمزاً حتي لم يفكر به أجدادهم البابليون عندما وضعوا صورة شكلية للاله شمس وهو يقدم ألواح قوانين الانسان لحمورابي راعي الأرض رمزاً لم يكن موجوداً في نصب جواد وجدارية فائق وجو رنيكا بيكاسو وحرية ديلاكروا، الشمس تحولت إلي طفل يدعو في ساحة الفردوس (الحرية) فرحاً يطارد رأس الخوف هذا الصبي العراقي الجميل الذي منحت رمزته شمساً أخري تطل ليس فقط علي الفردوس وإنما علي ضفاف كل المدن العراقية الحاملة والشمس في بغداد جاءت جميلة برغم تعبها الذي أرهقت نفسها طويلاً للتخلص من أغبرة المارين في دروبها، التشكيليون رسموا ويرسمون وسيرسمون صوراً جديدة قامت في المنافي البعيدة ورؤية تشكلت في المنافي القرية وها هم يرسمون معرضاً يتلو الحريق في الداخل ويعملون لعودة متحفهم الوطني ومعارض في الخارج تطلق موسيقي العاندون

عالياً والكل يري الشمس غير التي كانت تظهر عليهم في صباحات ليس للصباح معني فيها، هذه المرة قرروا العودة، وهي أيضاً لا تشبه أية عودة، عودة الفن لأرض الفن الأولي وهي أحلي عودة كما هي عودة الفرخ للذين سرق منهم الفرخ وكما هي عودة طيور النوروز والمهلهل وسمك الزوري ونشيد موطني يعودون التشكيليون العراقيون شيوخاً وشباباً لألوانهم ومشاعلهم ليبدعوا فناً آخر فناً جديداً لا يليق إلا بانسانية عالية في أجمل وأرقى صورها فناً سيمتد من المتحف الوطني للفن العراقي وحتى أصغر قاعة عرض في شرق وغرب الأرض يعرض فيها العراقيون، فهي العودة اذن ولن تكون ثلاثية وانما ستمتد متجاوزة حتي مفاهيم الغد.

2003/8/11Date --- 1580Issue ---AZZAMAN NEWSPAPER

جريدة (الزمان) --- العدد 1580 --- التاريخ 2003 - 8 - 11

AYMK